الدكتور أحمد محمد العسال

حوار الحضارات

« مدخل إلى رؤية إسلامية »

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة - ت - ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤١٦ - ١٩٩٦

رقم الإيداع ٣٣١١ / ٩٦
الترقيم الدولى
977 - 225 - 094 - 2

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، أحمده وأشكره وأستعينه وأستغفره وأسأله سبحانه أن يفتح لنا أبواب فضله ورحمته وأن يشرح صدورنا وييسر أمورنا ويرزقنا علماً نافعاً وعملاً صالحاً متقبلاً وأن يجعلنا من الدعاة إلى سبيله على بينة وعلى بصيرة، وأصلى وأسلم على خيرته من خلقه ورحمته إلى عباده رسولنا وحبيبنا محمد وعلى آله الطيبين وأصحابه الأبرار المتقين ، وعلى كل من دعا بدعوته واستمسك بسنته وجاهد جهاده إلى يوم الدين ، وبعد:

فهذه محاضرة عن : (حوار الحضارات - رؤية إسلامية) اقترحها مركز الملك فيصل للدراسات بالرياض ، وقد أخذت منى رحلة ليست باليسيرة وتم بحمد الله إلقاؤها فى إبريل ١٩٩٥ م ، وقد عنيت فيها بالإجابة عن التساؤل الذى يفرض نفسه فى هذا المقام : هل الحضارة الإنسانية شىء واحد أم أنها حضارات متعددة . . ؟ ثم بينت النقلات البعيدة التى نقلها الإسلام للإنسان ومن ثم أثرت فى مساره الحضارى ثم عالجت روافد الحضارة الغربية ومن أى شىء استقت وعلى أى أسس قامت . . وكيف أن الروح الاستعمارية التى صاحبتها جعلتها ترفض الآخر ولا

تعنى بالحوار . فهى حضارة مستكبرة تحاول الانفراد والإملاء .. وبخاصة تجربتها المرة مع الأمة الإسلامية .

وإذا كان العالم أصبح قرية واحدة بفعل التقدم الهائل فى القنوات الفضائية وشبكات الانترنيت وفيضان المعلومات .. فأولى له أن يستفيد من ذلك بتبادل الحوار والاعتراف بما عند الآخر من قيم وفضائل لا أن يفرض نظرته وفلسفته .. فلقد سقطت الماركسية بسبب الرفض القاتم للآخرين .. فعلى سدنة الحضارة الغربية أن يتواضعوا ويعترفوا بالآخرين ليكون ثمة أخذ وعطاء ، وفهم وتبادل للمنافع والمصالح والقيم والفضائل من أجل مستقبل أفضل لبنى الإنسان . والإسلام بنظريته السمحة البعيدة عن العصبية والجنسية واللونية ، وقيمه الثابتة الفاضلة يرحب بالحوار ويهيئ المناخ الطيب لذلك كما فعل رسول الله ﷺ مع وفد نصارى نجران حين رحب بهم واستقبلهم فى مسجده .. ولكن لكى ينجح الحوار لا بد أن يكون موضوعياً ومتخصصاً وأن يبتعد عن المشكلات الكلامية والفلسفية . وبهذا يستطيع الحوار أن يثمر تعاوناً وفهماً واضحاً ومستقبلاً زاهراً لبنى الإنسان ، أرجو أن أكون بهذه الكلمات أنرت الطريق فى هذا السبيل : ﴿ إنْ أُريدُ إلا الإصْلاحَ مَا استَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِى إلا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنيبُ ﴾ . (هود: ٨٨) .

د/ أحمد محمد العسال

إسلام آباد : ١٤١٦/٩/١٧هـ

١٩٩٦/٢/٥ م

حوار الحضارات

(مدخل إلى رؤية إسلامية)

تقديم :

تعد ظاهرة اتصال الحضارات بعضها ببعض إحدى ظواهر الحركة الإنسانية على مدى الأزمان والعصور ، ولم تزل حركة التاريخ تحكى لنا تجارب عدة لاحتكاك حضارات العالم ، بعضها بلغ حد الصراع للسحق والاستئصال ، وبعضها الآخر تمثل فى إدارة حوار مقصود أو مفروض نشأ عنه تفاعل وتلاقح فى صورة آخذ وعطاء ، إلا أن جميع تلك التجارب تثبت لنا أن حضارةً ما لا يمكن أن تحيا وحدها بمعزل عن بقية الحضارات .

والحضارة الإسلامية إحدى الحضارات العظيمة التى استمدت قوامها من عناصر الوحى السماوى ، ونشأت

وازدهرت وآتت أكلها فى ظل الإسلام ، وسيطرت على عالم الأمس بقيمها وأخلاقها ومبادئها الراقية ، ثم ما لبثت أن اجتاحتها أمراض الحضارات فركدت وهمدت إلى حين ، وها هى ذى تشهد بشائر صحوة جديدة تسعى لإعادة الحياة إليها وبث الروح فيها .

والصحوة الإسلامية فى مرحلتها الحالية تواجه تحدياً خطيراً يتمثل فى الحضارة الغربية الضاغطة بقيمها المادية ومبادئها النفعية وسلوكياتها الإباحية . وفى هذا الجو الفكرى المشحون بحملة غربية شرسة على معتقدات الأُمة الإسلامية ومقدساتها تفرض مجموعة من الأسئلة نفسها علينا ، وتبحث عن إجابة واضحة المعالم صافية الرؤية . ومن بين هذه الأسئلة :

- هل الحضارة الإنسانية واحدة ؟ ومن ثم وجب التسليم للحضارة الغالبة القاهرة سواء أكانت مادية أم غير ذلك . أم أنها متعددة ؟ ومن ثم وجب صناعة جسر من حوار واعٍ فيما بينها يسمح بحركة من التأثير والتأثر فى النافع الصالح .

- ثم ما موقف الإسلام من الحضارات الأخرى ؟ وهل له رؤية خاصة للحضارة ؟ وما عناصر هذه الرؤية ؟

- وماذا عن حضارة الغرب المعاصرة ؟ وماذا عن مستقبلها من وجهة نظر إسلامية ؟

- وماذا عن العلاقة بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى ؟ هل من جسر للحوار والتفاهم ؟ وهل من أسس عقدية وعملية تضبط هذا الحوار ؟

وفى ثنايا هذه الورقة أردت أن أتعرض إلى ما يعن لى من إجابات تعد مدخلاً إلى رؤية إسلامية لما نسميه بحوار الحضارات ، وأتناول فيها النقاط الآتية :

أولاً : حوار الحضارات - التعريف والتطور .

ثانياً : هل الحضارة الإنسانية واحدة أم متعددة ؟

ثالثاً : الإسلام والحضارة .

رابعاً : الغرب والحضارة .

خامساً : رؤية إسلامية للحوار .

أخيراً : كيف ينجح الحوار ؟

* * *

أولاً : حوار الحضارات - التعريف والتطور

إنه لمن المناسب فى بداية تناولنا لهذا الموضوع المهم فى هذه المرحلة التاريخية من حياة الأُمة ، أن نحدد بدقة المقصود بقولنا : « حوار الحضارات » ، لننطلق منه إلى فهم أبعاد الموضوع وعناصره .

جاء فى لسان العرب فى توضيح كلمة حوار : «تقول: سمعتُ حَوِيرَهُمَا وَحِوَارَهُمَا ، والمحاوَرَةُ : المُجَاوَبَةُ ، والتحاوُرُ : التجاوُبُ ، وتقول : كلّمته فما أحار جواباً ، وما رجع إلىَّ حواراً ، أى ما رد جواباً ، واستحاره استنطقه ، وفى حديث على كرم الله وجهه : يرجع إليكما ابناكما بحور ما بعثتما به ، أى بجواب ذلك » [1] .

وفى التنزيل العزيز فى قصة صاحب الجنتين :

---

(١) لسان العرب ٢ : ٣ ١٤٠ - المعجم الوسيط ١ : ٢٠٥

﴿ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ﴾ [1] ، قال ابن كثير : أى يجادله ويخاصمه .

ومن الألفاظ التى استُعملت فى معنى الحوار أيضاً كلمة « الجدال » ، قال الله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [2] والجَدلَ كما جاءَ فى اللسانَ : مقابلة الحجة بالحجة ، والمجادلة : المناظرة والمخاصمة ، وقد نهينا عن الجدل فى الباطل ، أما طلب المغالبة لإظهار الحق فإنه محمود لقوله عزَّ وجَلَّ : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ، وقال تعالى فى موضع آخر : ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [3] .

أما كلمة الحضارة فمعناها : الإقامة فى الحضر . قال الشاعر :

ومن تكن الحضارة أعجبته ... فأى رجـــال بادية ترانا

---

(١) الكهف : ٣٤ ... (٢) النحل : ١٢٥
(٣) العنكبوت : ٤٦

فالحضارة ضد البداوة ، وهى مرحلة سامية من مراحل التطور الإنسانى ومظاهر الرقى العلمى والفنى والأدبى والاجتماعى [1] .

وكلمة حضارة في اللغات الغربية (Culture) مأخوذة عن اللاتينية من فعل (Colere) بمعنى حرث ونمى ، وقد كانت فى الأصل مقصورة علي تنمية الأرض ومحصولاتها ، وفى أوائل العصور الحديثة بدأت تنتقل بمدلولاتها إلى الجانبين العقلى والمادى ، ثم غدت فى القرن الثامن عشر تدل على تنمية العقل والذوق واتسعت لتشمل المكاسب العقلية والأدبية والذوقية لتقابل عندنا لفظ الثقافة ، ثم بدأ علماء الاجتماع والأنثروبلوچيا يعنون بدراسة المجتمعات بدءاً من القرن التاسع عشر إلى أن أصبحت الكلمة تعنى : مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها فى مجتمع من المجتمعات [2] .

ولا شك فى أن هذا التطور للكلمة وما أخذته من

---

(١) المعجم الوسيط ١ : ١٨١

(٢) راجع معركة الحضارة من ٣٣ - ٣٧

مراحل فى الفكر الغربى يدلنا على سبق العلامة ابن خلدون فى تعريفه للعلم الذى يبحث طبيعة العمران والذى يعتبره حقيقة التاريخ ، وأن هذا العمران : هو نمط الحياة بوجه عام وبمعنى وصفى غير تقييمى ، فيشمل : أحوال المجتمعات البدائية والمتحضرة على السواء ، ولا يقتصر على الثانية منها فحسب . وانطلاقاً من هذا المعنى يحدد ابن خلدون بحثه فى مقدمته فى ستة فصول : الأول فى العمران البشرى عموماً وأصنافه وقسطه من الأرض ، والثانى : فى العمران ، وذكر القبائل والأمم الوحشية ، والثالث : فى الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية ، والرابع : فى العمران الحضرى والبلدان والأمصار ، والخامس : فى الصنائع والمعاش ، والكسب ووجوهه ، والسادس : فى العلوم واكتسابها وتعلمها [1] .

وهذا إن دل على شىء فإنه يدل على شمولية النظرة الإسلامية إلى مناشط الحياة المختلفة ، وهذا نابع من ذلك الدين القيم دين الإسلام ، على ما سنعرض له بعد قليل عند الكلام على حضارة الإسلام بين الحضارات الأخرى .

---

(١) مقدمة ابن خلدون : ٦ ، ٧ - طبع دار الجليل ببيروت .

وإذا كان مصطلح « الحضارة » يعنى فى مفهومه المعاصر مجموع عناصر الحياة وأشكالها ومظاهرها فى مجتمع ما ، وإذا كان « الحوار » هو المجاوبة أو المجادلة والمخاصمة أو المحاججة والمناظرة ، فإن « حوار الحضارات » يعنى أولاً : ذلك التفاعل الفكرى الناشىء عن احتكاك المبادئ والنظريات فى ثوب من المطارحات والمناقشات والمناظرات الفكرية ، وما يستتبع ذلك من قبول أحد الأطراف المحاورة نظريات الآخر أو رفضها أو طرحها للأخذ والرد ، و« حوار الحضارات » يعنى ثانياً : ذلك التأثير العملى الحادث من هيمنة حضارة على حضارة ، وما يستتبع ذلك من تغيير فى مظاهر الحياة العملية وأشكالها وأنماطها ، بل وعناصرها كلها .

ولما كان ذلك كذلك وجب أن نلفت النظر إلى أهمية « حوار الحضارات » وخطورته ، فإنه على قدر ما يحمل من براعة الحجة وقوة الدليل وأدب المجاوبة يحمل معه رياح التغيير لمظاهر الحياة كلها .

* * *

ثانياً : هل الحضارة الإنسانية واحدة أم متعددة ؟

ويجدر بنا - قبل أن نخوض فى تفصيلات موضوعنا هذا - أن نجيب على سؤال مهم ، ألا وهو : هل الحضارة الإنسانية واحدة أم متعددة ؟

ويمكن أن نقرر أن الحضارات البشرية التى زخر بها تاريخ الإنسان كالحضارة المصرية والبابلية واليونانية والعربية والمكسيكية والصينية وتركت آثارها فى الفكر والفنون والآداب والمتاحف والآثار وغير ذلك ؛ ليست واحدة فى ذاتها ، وذلك لتميز كل منها فى اتجاهاتها وإنجازاتها واختلافها فى الزمان والمكان ، ولهذا رجح مؤرخو الحضارات وعلى رأسهم أوزوالد شبينجلر أن كلاً منها مستقل عن الآخر ، فيقول : إن الرأى القائل بحضارة إنسانية واحدة تسير فى خط مستقيم ينقسم إلى عهود قديمة ومتوسطة وحديثة ، رأى صادر عن العقلية الأوروبية الغربية المحدودة ضمن أفقها المحدود ، والمعجبة بإنجازاتها والتى تحصر الحضارة فى ذاتها وتنصرف عن الحضارات الأخرى ، وتنظر إلى تطورها وكأنه تطور الإنسانية بكاملها

وإلى عهــودها الحديثة وكأنها أواخر مراحل التقدم أو خاتمتها.

فهو لا يقر بمركز خاص للحضارة الأوروبية الغربية أو لأية حضارة أخرى ، فكل حضارة مستقلة عن سواها ، ولكل منها حياتها الخاصة وفلكها الذى تدور فيه ، ومميزاتها الذاتية المستمرة من جوهر كيانها (١) وتبعه فى تقرير ذلك الرأى العديد من مؤرخى الحضارات المشهورين وعلى رأسهم أرنولد توينبى (٢) .

ثم يقول شبينجلر : ومن هنا كانت خصائص كل حضارة وانفصالها وتفردها عن سواها ، فليس ثمة نظام سياسى واحد ، ولا اقتصاد واحد أو اجتماع واحد ، ولا

---

(١) معركة الحضارة ٦١ ، ٦٢ ، عن كتاب « انحطاط الغرب » (The decline of the west) لمؤلفه الألمانى الشــهير Oswold Spengler (١٨٨٠ - ١٩٣٦) ، ولقد انتشر انتشاراً واسعاً فأحدث دوياً هائلاً فى الأوساط العربية .

(٢) وذلك فى كتابه (Study of History) فى اثنى عشر مجلداً (١٩٣٤ - ١٩٦٣) .

عقائد أو سنن أو أخلاق إنسانية واحدة ، ولا فنون أو آداب واحدة ، حتى العلوم تكون تابعة للحضارات ومختلفة باختلافاتها ، فلا يمكن أن نقول : بنظام عددى واحد ، أو علم رياضى واحد ، وإنما نجد نظاماً عددياً ، وعلماً رياضياً مطابقاً لكل من الحضارات ومنبثقاً ككل نتاج من نتاجاتها عن رمزها الأول الأصيل ، كل شيء نسبى والحقيقة كذلك نسبية .

والحضارة كائن عضوى ، وككل كائن عضوى لها أدوارها المتتابعة . إنها كالإنسان تولد فتمر بأدوار الطفولة والشباب والكهولة والشيخوخة . . . . إنها تدور فى أربعة فصول : لها ربيعها المتسم بالفاعلية الروحية ، وصيفها الذى تتضح فيه ، وخريفها الذى يسوده التحليل العقلى ، وشتاؤها الذى تكون فيه قد استنفدت جميع إمكاناتها الداخلية فتنصرف إلى الاهتمامات المالية وإلى الفتوح الخارجية ، ويكون هذا مقدمة لانحلالها وانهيارها [1] .

---

(١) معركة الحضارة : ٦٤ عن المصدر ذاته .

هذا هو الخط البيانى المعبر عن نشأة الحضارات ونموها وبلوغها مرحلة النضج ثم الكهولة ثم الانهيار ، فماذا عن الإسلام بوصفه حركة حضارية عظيمة ؟

* * *

ثالثاً : الإسلام والحضارة

● النبوات والرسالات طريق حضارة واحدة :

لقد جاء الإسلام خاتماً لرسالات الله جميعاً ، مبيناً استخلاف الله - عز وجل - لبنى آدم فى الأرض ليعبدوه وليقوموا بتعميرها ، وصحح كل الرؤى الخاطئة التى سبقته ، فأعطى البشرية رؤية شاملة للكون والحياة والإنسان، وبيّن أن البشرية مضت فى خطين وفى طريقين : أحدهما : طريق النبوات والرسالات ، والآخر : طريق الوثنيات . والحضارات التى بعدت عن نور الوحى وهداية الله ، وتنكبت طريق الفطرة السليمة ، وتخبطت فى الظلمات ، حاق بها عقاب الله فى الدنيا وتنتظر سوء المصير فى الآخرة .

وقد عرض القرآن الكريم لهذا النوع ببيان آحاذ وعرض مؤثر ، وسنعود إليه بعد ذلك ، ولكننا نريد الآن أن نبين ما قدمه الإسلام للبشرية ، فقد أرسل الله أنبياءه ورسله لتنفيذ حكمته ومشيئته فى خلقه ، ولتقوم الحجة وينقطع العذر ، وأخبر عن ذلك بقوله - تعالى - : ﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ، وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ (١) ، ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّه ، إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ ، وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ (٢) . وتبشير المؤمنين الصالحين بالحياة الطيبة فى الدارين ، وإنذار الكافرين المكذبين بسوء العاقبة واستحقاق العذاب ودخول جهنم وبئس المصير . وصدق الله ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ (٣) .

وجاءت الرسالات كلها متفقة فى أصل المبدأ والمعاد والغاية من الخلق والعمل الصالح والخلق الحسن والأدب

---

(١) النساء : ١٦٥ (٢) الرعد : ٧
(٣) الإسراء : ١٥

الفاضل والثواب والعقاب : ﴿ وَما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [1] ، ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ [2] ، وقوله سبحانه عند ذكر قصص الأنبياء فى سورة الأنبياء : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [3] ، وفى سورة المؤمنون : ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [4] .

وكان الفرق بين كل رسالة وأخرى الشرائع المنظمة للمجتمعات ، فكانت كل شريعة تناسب ظروف وطبيعة القوم الذين أرسل فيهم الرسول . يقول الله تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾ [5] .

وببعث محمد ﷺ ونزول القرآن ختمت النبوات

---

(١) الأنبياء : ٢٥
(٢) الشورى : ١٣
(٣) الأنبياء : ٩٢
(٤) المؤمنون : ٥٢
(٥) المائدة : ٤٨

وكملت الرسالات ، وأصبحت البشرية مهيأة للخطاب العالمى والرسالة النهائية ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾ (١) ، ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً ﴾ (٢) ، ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ الله وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (٣) . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (٤) .

وفى الحديث الشريف : « إن مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى بيتاً إلا موضع لبنة فيه ، فكان الناس يمرون بالبيت ويقولون : لولا هذه اللبنة ، فأنا هذه اللبنة وأنا خاتم النبيين » (٥) ، وفى مسند الإمام أحمد : « أخبرنا لقمان بن عامر ، قال : سمعت أبا أمامة قال : قلت : يا رسول الله ؛ ما كان أول بدء أمرك ؟ قال : دعوة أبى

---

(١) الفرقان : ١ . (٢) سبأ : ٢٨
(٣) الأحزاب : ٤٠ (٤) الأنبياء : ١٠٧
(٥) رواه مسلم .

إبراهيم وبشرى عيسى بى ، ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام » [1] .

* *

● النقلات الحضارية التى أحدثها الإسلام :

وفى ضوء ما سبق أعاد الإسلام صياغة العقل البشرى بما يجعله قادراً على الفعل الحضارى من خلال نقلات أساسية ثلاث : نقلة تصورية اعتقادية ، ونقلة معرفية ، وثالثة منهجية .

أ – أما النقلة الاعتقادية : فهى من تعدد المعبودات إلى توحيد الله وحده ، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد عز وجل ، ومن تقديس الحجارة والأصنام إلى محبة الحق وكسر الحاجز المادى وجعل الإنسان ينظر ويتطلع إلى عالم الغيب ، وقد تحدث القرآن عن هذه النقلة فبين أنها خروج بالناس من الظلمات إلى النور ، ثم جردت الإنسان من

(١) تفسير ابن كثير ١/ ٢٧٤ عن المسند : ٥/ ٢٦٢

الأغلال والقيود وأوزار الجاهلية وضلالاتها وعاداتها ، وفى ذلك يقول الله عز وجل :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) .

فقام هذا التصور على النظر الصحيح والطريق المستقيم، وانضبطت حركة الإنسان بالتوحيد والعدل والقيم الخالدة التصورية المنبثقة عن ذلك : الربانية ، الشمولية ، التوازن والثبات ، الحركة والإيجابية والواقعية . . وهذا النسق المحكم يمثل تطابقاً باهراً مع معطيات الفطرة البشرية (٢) .

ب – وأما النقلة المعرفية : فهى عمل فى صميم العقل

---

(١) الأعراف : ١٥٧

(٢) مؤشرات الحضارة الإسلامية ، د . عماد الدين خليل – دار الصحوة والنشر والتوزيع – القاهرة .

من أجل إعادة تشكيله بالصيغة التى تمكنه من التعامل مع الكون والوجود ، فليس عبثاً أن تكون كلمة « اقرأ » هى الكلمة الأولى من كتاب الله وتتكرر مرتين فى آيات ثلاث ، وليس عبثاً أن ترد كلمة « علم » ثلاث مرات ، وأن يشار إلى « القلم » الأداة التى يتعلم بها الإنسان .

وعبر المدى الزمنى لتنزل القرآن ينهمر السيل ، ويتعالى النداء المرة تلو المرة : اقرأ . . تفكر . . اعقل . . تدبر . . تفقه . . انظر . . تبصر . . إلخ ، وهذا جعل العقل يتشوف إلى المعرفة ، ودفعه إلى البحث والتساؤل والجدل [1] .

جـ - أما النقلة المنهجية فتشمل ثلاثة أمور :

١ - السببية : وهى رؤية تركيبية للكون والحياة والإنسان والوجود ، تربط - وهى تتأمل وتبحث وتعاين وتتفكر - بين الأسباب والمسببات ، فهذا الكون الذى تراه والذى سخره الله عز وجل لبنى البشر هو تعبير عن إبداع الخالق

---

(١) المصدر السابق : ٩ ، ١٠

تشده قوانين واحدة وأسباب واحدة وتصدر عن إرادة واحدة، ولن يتحقق فهمه أبداً ما لم ينظر إليه إلا من خلال رؤية عقائدية تعرف كيف تجمع وتلم وتقارن وتختزل وترتب وصولاً إلى الحقائق التى يبتغيها .

إن الكشف عن السببية والأخذ بشروطها المنهجية كسب كبير للعقل البشرى ، وإضافة قيمة تمكنه من إعادة التشكيل فى صيغ أكثر قدرة على العطاء ، والإبداع فوق ما تمنحه من اليقين بقدرة الله عز وجل وعظمته [١] .

٢ - القانونية التاريخة : إن التاريخ البشرى لا يتحرك فوضى على غير هدف ، وإنما تحكمه سنن ونواميس كتلك التى تحكم الكون والعالم والحياة والأشياء ، فالقانون يحكم التاريخ ويشتمل على الظواهر الاجتماعية ، ولا يكتسب التاريخ أهميته الإيجابية إلا بأن يُتخذ ميداناً للدراسة والاختبار تُستخلص منه القيم والقوانين التى لا تستقيم أية برمجة للحاضر والمستقبل إلا على هداها كما

---

(١) المصدر السابق بتصرف : ١٢ ، ١٣

فعل ابن خلدون فى مقدمته عن العمران البشرى [1] .

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [2] .

٣ - منهج البحث الحسى التجريبى : يمكن القول بأن الكشف عن السببية والقانونية التاريخية لا يعدل الكسب المعرفى القيم الذى أحرزه المسلم خصوصاً ، والعقل البشرى عموماً ، والذى تمثل فى منهج البحث الحسى التجريبى الذى كشف النقاب عنه ونظمه وأكده ودعا إليه كتاب الله .

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق « النظر الحسى » إلى ما حولهم ابتداء من مواقع أقدامهم وانتهاءً بآفاق الأنفس ، والكون ، وأعطى الحواس مسؤوليتها الكبيرة عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم فى مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب ، وناداه أن يمعن النظر إلى ما حوله . . إلى خلقه . . إلى طعامه وشرابه . . إلى الكون

---

(١) المصدر السابق : ١٤ (٢) ال عمران : ١٣٧

من حوله . . إلى التاريخ وحركة الإنسان فى الأرض . . إلى خلائق الله وآياته المنبثة فى كل مكان . . إلى النواميس الاجتماعية . . إلى الطبيعة والعالم . . ودعاه أن يحرك سمعه باتجاه الأصوات لكى يعرف ويميز .

وانتقل القرآن الكريم خطوة أخرى فدعا الناس إلى تحريك « بصائرهم » لتتحمل مسؤوليتها فى تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى الحق الذى تقوم عليه وحدة نواميس الكون والخليقة .

وأكد القرآن أهمية الأسلوب الذى يعتمد البرهان والحجة والجدال الحسن للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والموازنة والتمحيص ، ولا يسعنا استعراض جل ما ورد من آيات فى هذا المجال أو حتى الإشارة إليه ، ويكفى أن نشير إلى أن كلمة « علم » بتصريفاتها المختلفة وردت فى عدد من الآيات جاوز الـ ٧٥٠ آية .

وهكذا فإن النقلة أو التحول الحضارى الكبير الذي نفذه المسلمون وتحققوا به عبر القرون إنما جاء ثمرة العقلية التى صاغها الإسلام ودفعها للنقلة الخطيرة من أن تلعب دورها

الشامل فى تكوين وإغناء الحضارة الإسلامية ، ولم تكن هذه النقلة الحضارية بحال أقل خطورة من النقلات الثلاث التى مهدت لها وشقت أمامها الطريق .

* *

● القانونية التاريخية ونظرة القرآن الكريم للحضارات :

قلنا : إن من النقلات البعيدة - التى أثرت فى العقل الإسلامى ووضعته على سنن الحق وناموس الهدى - القانونية التاريخية التى بينت أن تاريخ البشرية ملحمة متصلة تضبط سيرها سنن ونواميس لا تتخلف ولا تتبدل ، تنتفى عنها العبثية ، ولا مجال فيها للصدفة ، فالخلق كله - كونه وبشره - محكوم منضبط لا لهو فيه ولا عبث . يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُم لاَ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْض وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ * لوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْواً لاَتَّخَذْنَاهُ من لَدُنَّا إن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ [2] ، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ

---

(١) الدخان : ٣٨ ، ٣٩ (٢) الأنبياء : ١٦ ، ١٧

وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ، ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ ، فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ ، أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُواْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾ (١) .

ولذا كان من إعجاز القرآن الكريم إخباره عن أنباء الأمم الغابرة والحضارات البائدة إخبار الحاضر المشاهد المعاين ، يقول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ ، إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) ، ويقول سبحانه : ﴿ كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ، وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْراً ﴾ (٣) ، ويقول عز من قائل : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ (٤) .

---

(١) ص : ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ — (٢) هود : ٤٩

(٣) طه : ٩٩ — (٤) هود : ١٠٠

والهدف العظيم من هذا القصص هو : مثول العبرة أمام أصحاب العقول الحية ، وصدق الله : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١) . قال الخليل : العبرة والاعتبار بما مضى : أى الاتعاظ والتذكر . . وتكون العبرة والاعتبار بمعنى الاعتداد بالشيء فى ترتيب الحكم (٢) .

والاعتبار الذى بيّنه القرآن ووضحه أن الله عز وجل ابتلى الإنسان بالاستخلاف فى هذه الأرض ليعمرها بإصلاح العمل وإحسانه ، يقول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ (٣) ، ويقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (٤) .

---

(١) يوسف : ١١١ — (٢) المصباح المنير ، مادة : عبر .
(٣) الملك : ١ ، ٢ — (٤) الكهف : ٧

ومن ثم فإن كلا من العمل الصالح والعمل السيىء له نتائجه وثمراته إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر . ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَالَّذِى خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلَّا نَكِداً، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ (١) ، ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) . ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (٣) . ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٤) .

ومن هنا فإن الذنوب والسيئات ليست محايدة ، فهى

---

(١) الأعراف : ٥٨

(٢) النحل : ٩٧

(٣) النحل : ١١٢

(٤) الأعراف : ٩٦

تعمل فى الحضارات والمجتمعات عمل الأمراض فى الأجسام من الجهد والسقم والضعف والإفناء ، بل هى أخطر فتكاً وأشد أثراً لأنها تقتل فى الإنسان أشرف ما فيه، وهى المعنويات والفضائل والمكرمات التى فضل الله بها الإنسان وميزه عن الحيوان الأعجم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِى آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ (١) .

والقرآن الكريم يعرض سير الأنبياء والمرسلين وكونهم حملة رسالة الحق إلى أقوامهم وأممهم ، يبينون لهم سنن الحق والهدى ، ويأخذون بيدهم إلى أخلاق الفطرة السوية، ويعملون بينهم بالشريعة المستقيمة . يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ، وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ، وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ، إِنَّ اللهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ (٢) .

---

(١) الإسراء : ٧٠ (٢) الحديد : ٢٥

فأى أمة أو حضارة أعرضت عن سنن الحق فى النفس والحياة والعلاقات والأشياء ، وأعرضت عن هدى الله فكفرت بأنعمه وأشركت به سبحانه واستعلى أولو الأمر فيها فتكبروا وتجبروا واتبعوا أهواءهم فتنكبوا الأخلاق الكريمة والأعمال الصالحة ، فظلموا أنفسهم ، وتجبروا على قومهم ، وشاعت فيهم منكرات الأخلاق والأفعال . . إذا فعلوا ذلك نزل بهم عقاب الله لا محالة ، يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا القَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴾ [١] ، ويقول : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً ، وَكُنَّا نَحْنُ الوَارِثِينَ ﴾ [٢] .

---

(١) الإسراء : ١٦ (ففسقوا فيها : أمرناهم بالطاعات ففعلوا الفواحش فاستحقوا العقوبة - ابن كثير : ٣/ ٥٥) . .

(٢) القصص : ٥٨ (بطرت معيشتها ، أى : طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فيما أنعم به عليهم من الأرزاق - ابن كثير : ٣/ ٦٣) .

والقرآن الكريم لا يبخس الحضارات حقها فيما أنجزت من عمران وتشييد وبناء ، ولكنه يبين أن الجانب القيمى والأخلاقى هو الذى يحفظ إنسان الحضارات ويجعل عنده المناعة والرشد الذي يقيه التدهور والفساد ، ويعرض القرآن الكريم عرضاً باهراً آخاذاً ومؤثراً كيف أن الذى دمر حضارة الإنسان على مر العصور والدهور هو الفساد فى المعتقد والأخلاق والقيم والشرائع التى تحكم المجتمعات ، وأن الفساد إذا دب فى ناحية من نواحى أى مجتمع سرى فى الجوانب الأخرى ، فحياة المجتمعات والأفراد وحدة لا تتجزأ إذا أصاب العطب جزءاً مضى إلى الأجزاء الأخرى، فكما قيل : الفساد ليس محايداً ولا عقيماً .

ولهذا عرض القرآن العظيم قصة قوم لوط وكفرهم وفسادهم الخلقى ، وقصة قوم عاد وكفرهم واغترارهم بقوتهم ، وقصة قوم شعيب وكفرهم وتطفيفهم الكيل ، وقصة سبأ وكفرهم وجحودهم وإعراضهم ، وقصة فرعون وتألهه ، واستبداده وظلمه . . والقرآن له أسلوبه الفريد فى العرض وطريقته المتميزة ، فلا يسرد القصة سرداً وإنما

يوردها هنا وهناك حسب سياق العبرة ، وجرسه المؤثر ، وتصريفه القول ، وإليك نموذجاً مما عرضه القرآن فى ثلاث قصص : سبأ وعاد وفرعون .

قصة سبأ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ، جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَهُم بِمَا كَفَرُواْ ، وَهَلْ نُجَازِى إِلاَّ الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ * فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ * وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقاً مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ

بالآخرة ممَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴾ (١) .

قصة عاد : ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُون * وَما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ، إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُواْ اللهَ وَأَطِيعُون * وَاتَّقُواْ الَّذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُم بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَ عَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَهُمْ ، إِنَّ فِى ذَلِكَ لآيَةً ، وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

قصة فرعون : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ

---

(١) سبأ : ١٥ - ٢١ (٢) الشعراء : ١٢٣ - ١٣٩

وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ ، إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ آمِينٌ * وَأَن لاَّ تَعْلُوا عَلَى اللهِ ، إِنِّى آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ * وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ * وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِى فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلاَءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلاً ، إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً ، إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ ، وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِياً مِّنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُم مِّنَ الآيَاتِ مَا فِيهِ بَلاَءٌ مُّبِينٌ ﴾ (١) .

* *

(١) الدخان : ١٧ - ٣٣

● القيم الحضارية الكبرى فى نظر الإسلام :

وعلى ذلك فالميزان الذى يزن به الإسلام الحضارات هو مدى قربها أو بعدها من عقيدة التوحيد ، ومن قوانين الحق والفطرة ، والتزامها بقيم العدل والقسط وحضها على محاسن الأخلاق وجميل العادات والآداب ، وبُعدها عن جرائم الظلم والتسلط والكبر .

والإسلام يرى أن الأسرة البشرية لحمة واحدة وآصرة مشتركة ، وأن التعدد والتنوع بين الأُمم والقبائل إنما غايته التعارف والتعاون لا التنابذ والتخاصم ، فيقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ (١) ، ويقول : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ، إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٢)

---

(١) النساء : ١

(٢) الحجرات : ١٣

ويأمر بالتعاون والتآزر : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى البِرِّ والتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ . . . ﴾ [١] إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث التى تضع البشرية كلها فى إطار التفاهم والدعوة إلى المثل العليا والقيم الكريمة التى تجمع بين بنى الإنسان على كلمة سواء ، ويخص أهل الكتاب بالرعاية والعناية لما عندهم من بقية خير وأثر من الكتب التى تنزلت فيهم على ما سنبينه فيما بعد .

ولهذا فإننا سنرى إلى أى حد يمكننا أن نحاور الحضارات التى نعايشها بوصفنا مسلمين ؟ وما هى مجالات هذا الحوار ؟ وكيف نهيئ الجو الصالح لهذا الحوار ؟

لكننا قبل أن نجيب على هذه الأسئلة المهمة لا بد لنا أن نتعرف عن قرب على الحضارة السائدة فى زماننا والقائدة لزمام عالمنا ألا وهى حضارة الغرب .

* * *

(١) المائدة : ٢

رابعاً : الغرب والحضارة

● حضارة الغرب (الروافد والمؤثرات) :

يجمع المؤرخون والمفكرون على أن الحضارة الغربية وخاصة الأوروبى منها وليدة روافد ثلاثة :

فى المجال الأخلاقى : المسيحية وخاصة الكاثوليكية .

فى مضمار الحقوق والسياسة والدولة : القانون الرومانى .

فى حقل الفكر والفنون : التقليد الإغريقى [١] .

ولكن الحضارة فى حركتها وتدفقها تشبه كثيراً تيار الماء المتدفق فى مجرى نهر مندفع يجمع روافد من هنا وهناك ، فلا عجب إذا وجدنا الحضارة الغربية وقد أخذت من المنابع

---

(١) حوار الحضارات ، تأليف روجيه جارودى ، منشورات عويدات بيروت - باريس - الطبعة الثالثة سنة ١٩٨٦ صفحة ١٧ .

الثلاثة الماضية كإرث ثقافى موصول بالإغريق والرومان ، والكنيسة تأثرت وتعلمت من الحضارة الإسلامية عن طريقين مهمين :

الأول : الاحتكاك المباشر فى جولات الصراع البيزنطى، والحروب الصليبية .

والثانى : عن طريق الجامعات والمعاهد العلمية فى جنوب إيطاليا وقرطبة ودمشق وبغداد .

وقد استطاع العلماء المسلمون بمنهجهم المتوازن الذى حفظ العقل عن الاستمرار فى البحث فيما وراء الطبيعة وفيما لا طائل منه : إذ إنه من الغيب الذى اختص **الله** به، وأن طريقه إخبار الصادق المصدوق ﷺ ، وأن دور العقل فيما يدخل فى دائرة قدرته وإمكانياته ، وأن الحواس هى وسائله التى تعينه وتمكنه أن يعرف القوانين فى نفسه وفيما حوله من الكائنات . . هذا المنهج هو الذى مكن المسلمين من عمل النقلة الهائلة فى مجال العلوم التجريبية وجعلهم ينقلون الطب والصيدلة والكيمياء والعلوم الأخرى النقلة الهائلة التى أعطت أوروبا مفاتيح العلم التجريبى ، وظلت

العربية لغة الطب فى فرنسا حتى القرن السادس عشر ، وفى انجلترا حتى القرن التاسع عشر . وتأثير الحضارة الإسلامية فى مجال العلوم الأخرى الآن مقرر ومسجل فى كثير من المصادر ، وإنما أردنا فقط تسجيل التأثير فى هذا المضمار .

وقد حدث تأثير آخر فى مجال الفكر الدينى ألا وهو حركة الإصلاح الدينى التى قادها مارتن لوثر فى ألمانيا وكليفن فى إيطاليا والتى حاولت أن تحرر الكنيسة من صكوك الغفران ، ومن قضايا الاعتراف التى نشأ عنها المذهب البروتستانتى ، ولكن الأزمة الهائلة والانفصام النكد بين رجال العلم وآباء الكنيسة من جراء سيطرة الفكر الإغريقى على عقلية آباء الكنيسة فى نظرتهم للكون والحياة، وأن الأرض هى مركز الكون ، إلى غير ذلك من الآراء ، أدى إلى إقامة محاكم التفتيش التى تحكم على العلماء بالحرق والسجن وغير ذلك ، فكان أن حدث رد الفعل الذى قامت على إثره الثورة الفرنسية التى كان شعارها « اشنقوا آخر ملك؛ بأمعاء آخر قسيس » ، والتى عزلت الدين عن الحياة وحبسته داخل الكنيسة .

وانطلقت حضارة الغرب تبحث عن نظريات تؤسس عليها نظرتها للحياة والإنسان والكون . . فتوجهت أولاً إلى الإيمان بالعقل الإنسانى الواحد بدل الإيمان بالله الواحد، وقد وضح ذلك فيما وضعه أوجست كونت (Auguste Conte) فى كتابه الشهير فى الفلسفة الوضعية ، وكذلك ما وضعه هيجل فى نظريته فى تعليل التاريخ وأن المبدأ الأساسى الذى يحرك الوجود هو الروح أو العقل (Geist) المطلق الكيان ، ثم نظرية دارون فى نشوء الأحياء وارتقائها [1] .

ثم جاء علماء الاجتماع كهربرت سبينسر وأمثاله فنقلوها من عالم الحياة العضوية إلى عالم الحياة الإنسانية ، ثم جاء جان جاك روسو فوضع نظريته فى العقد الاجتماعى التى كانت أساس نظرية القوميات فيما بعد ، ثم جاء ماركس ووضع نظريته الجدلية على أساس أن المحرك لحياة الإنسان هو العامل الاقتصادى ، وفرويد من أن المحرك هو الغريزة الجنسية .

---

(١) انظر « معركة الحضارة » : صفحة ٥٥ - ٥٧ لمؤلفه قسطنطين زريق - الطبعة الأولى بيروت أبريل ١٩٦٤ .

وهكذا اجتمع للحضارة الغربية كل النظريات التى تربط نشاط الإنسان بالجانب المادى فى الحياة وتفرغه من الجانب الروحى ، ثم جاء البراجماتيون فكرسوا مذهب المنفعة وقالوا : إن علم الأخلاق فيما يتعلق بالناحية المعيارية مثل العلوم الطبيعية فى أنه لا يمكن استنباطه كله مرة واحدة من مبادئ ذهنية ، بل لا بد أن يخضع للزمن وأن يكون مستعداً لأن يغير نتائجه من آن لآخر والآراء الذائعة حق ، وأن القانون المعيارى الحق هو ما يعتقده الرأى العام .

* *

● إنجازات الحضارة الغربية :

ومع هذا الانفصام النكد الذى حدث بين الحضارة الغربية والدين ، وهذا الخط المنحرف الذى جعلها تبتعد كثيراً عن هدى الفطرة السليمة والقيم الصالحة ، فقد حققت إنجازات رائعة فى ميدانى العلوم والمخترعات ، وميدان الحياة السياسية والاجتماعية ، فقد انتقلت بالبشرية

من عصر البخار إلى عصر الكهرباء والصناعة والتقنية المتقدمة ، ثم عصر الاتصالات والفضاء ، وأخيراً عصر الإلكترونات وثورة المعلومات .

أما فى ميدان الحياة السياسية فقد قدمت المذهب الليبرالى الذى أرسى دعائم فصل السلطات الثلاثة ؛ القضائية والتشريعية والتنفيذية وأعطى الأمة حقها فى السيادة وانتخاب ممثليها . وبذلك خلصت المجتمعات الغربية من ربقة الإقطاع واستبداد الأمراء والحكام وهيمنة آباء الكنيسة ، فغدت هذه المجتمعات حرة تمارس حياتها بكل إبداع وإيجابية .

ومن هنا خطت هذه المجتمعات خطوات هائلة فى طريق التقدم والحضارة وانطلقت تبنى وتتعلم وتستثمر فوصلت إلى ما وصلت إليه الآن مما نراه ونشاهده ونشعر به من الفجوة الهائلة بين مجتمعات الغرب والمجتمعات الأخرى ، وهذا ما يفسر التأثير الهائل ، والتقليد المشاهد، والافتتان الكبير بمنجزات هذه الحضارة ومحاولة اللحاق بها، فكما قيل : المغلوب مولع بتقليد الغالب ، وكما قيل أيضاً : إن قيادة قطار التقدم منوطة بمن يملك زمام العلم

والابتكار ، ولا يسع المتخلف أو قليل البضاعة إلا أن يركب هذا القطار شاء أم أبى !!

* *

● الحضارة الغربية واستعمار الشعوب :

ولكن من سوء طالع هذه الحضارة أن ارتبطت نهضتها وتقدمها بأسلوبها الوحشى التدميرى للشعوب الضعيفة واستباحتها لخيرات هذه الشعوب بأساليب تنم عن الخبث والدهاء والمكر والبعد عن القيم الفاضلة ، وما أمثلة أعمال شركتى الهند الشرقية فى الهند ، والشركة الهولندية فى أندونيسا ، وحركة صيد الزنوج فى إفريقيا وشحنهم إلى أمريكا لاستغلالهم واستعبادهم ، وإفناء الهنود الحمر فى أمريكا ، وكذا السكان الأصليين فى أستراليا ، وحرب الأفيون فى الصين ، واستنزاف مناجم الذهب فى جنوب إفريقيا وغينيا ، إلا أمثلة يسيرة على ذلك [1] .

---

(١) انظر حوار الحضارات الفصل الثانى ص ٣٧ - ٩٣ ، وفيه رصد أمين موثق لما قام به المستعمرون فى أسيا وأفريقيا .

وقد كان حظ العالم الإسلامى وفيراً من هذا الذل الاستعمارى ، فقد سقط كله إلا القليل النادر تحت رحى الإستعمار الغربى خلال القرون الثلاثة الأخيرة ، ولم تأت الحرب العالمية الأولى إلا وكان شرق العالم الإسلامى وغربه تحت السيطرة الاستعمارية تمهيداً لإلغاء الخلافة سنة ١٩٢٤ (١) ، وقد سبق للشعوب الإسلامية فى آسيا الوسطى والقوقاز أن طحنتها رحى القيصر الروسى وورثتها بعد ذلك الماركسية .

وقد تسببت هذه الروح الاستعمارية فى إذكاء جذوة التنافس وولدت المذاهب النازية والفاشية والماركسية التى اصطلى العالم بسببها بحربين عالميتين ذهب ضحيتهما ما يتراوح بين ١٦٧ - ١٧٥ مليون شخص أزهقت أرواحهم وبصورة متعمدة باسم الأيدولوچية وباسم السياسة - على حد تعبير بريجنسكى - وهذا العدد المساوى عدد سكان

---

(١) انظر « الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى»، للدكتور : محمد البهى - الطبعة التاسعة ١٩٨١ - مكتبة وهبة ، القاهرة - صفحة ٢٣ وما بعدها .

ثلاث دول أوروبية مجتمعة هى ؛ فرنسا وإيطاليا وبريطانيا ، أو ما يزيد عن ثلثى سكان الولايات المتحدة الأمريكية ، وهو رقم أكبر من إجمالى كل الحروب الأهلية والاضطهادات الدينية عبر التاريخ الإنسانى كله [١] .

ومن هنا كان تعامل الحضارة الغربية بإرثها التاريخى ، وإرثها الفكرى ، ونظرتها الاستعمارية نظرة الاستعلاء والكبر إلى الشعوب الأخرى ؛ نظرة لا تقوم على الندية ولا الأخذ والعطاء إنما هى قائمة على الأحادية ، وأنها الحضارة التى انتهت إليها الحضارات ، وزاد من تركيز هذا الموقف انهيار النظام الاشتراكى ، فانفردت الحضارة الغربية بقيادة العالم ، وظهرت الكتابات التى تبرر هذا الانفراد من مثل كتابة فرانسيس فوكوياما وكلامه عن نهاية التاريخ وأن العالم بأسره قد وصل إلى ما يشبه الإجماع بخصوص الديمقراطية الليبرالية كنظام للحكم بعد أن ألحقت الهزيمة بالأيديولوچيات المنافسة ، ويرى فوكوياما أن كلاً من

---

(١) « الانفلات » ، تأليف : ز . بريجنسكى ، ترجمة خالد محمد بهاء - طبع مركز الدراسات الحضارية القاهرة ص ٢٩ .

هيجل وماركس كانا يريان أن التاريخ سيصل إلى نهايته حينما تصل البشرية إلى شكل من أشكال المجتمع الذى يشبع حاجة البشر الأساسية والرئيسية ، فهو عند هيجل الليبرالية وعند ماركس المجتمع الشيوعى .

ومن مثل كتابة هينتجتن فى بحثه عن صدام الحضارات وفيه يرى أن الصراع القادم سيكون صراعاً بين الحضارات ستصفى فيه الحضارة الغربية الحضارات التى لا زال عندها إحساس بهويتها وذاتيتها ، وأن أهم عامل فى حضارات اليوم هو الدين ، ويضرب الأمثلة على بدء الصراع الدامى فى العالم بأن المحرك لها هو الدين ، ولهذا يرى العقلاء من الغرب من أمثال روچيه جارودى : أن هيمنة الغرب هى أخطر حدث فى تاريخ الكون لم ينتج عنه سوى الخوف من الموت ، وخشية الإنسان أخاه ، والذعر من المستقبل ، يقول جارودى : منذ القرن السادس عشر إلى نهاية القرن العشرين تحكمت فى حضارتنا الغربية فرضيات ثلاث :

١ - أسبقية الفعل والعمل .

٢ - أسبقية العقل .
٣ - أسبقية اللامتناهى الردئ واللامتناهى الكمى . .

ثم يقول : إن هذه الحضارة مجهزة بدواعى الانتحار، وذلك لانعدام الغاية كما يشهد بذلك اللجوء إلى المخدرات، وانتحار المراهقين التى هى أكثر حدوثاً فى البلاد الأوفر ثراء ، وازدياد معدل الجريمة ، وانتشار مرض الإيدز ، وتلوث البيئة ، ونفاد الموارد الطبيعية ، وهى نتيجة لتصور لا يرى فى الطبيعة إلا خزاناً ومزبلة .

إن مجتمعاتنا التى تدعى أنها متقدمة تشغل باسم فرضية اللامتناهى الكمى بمقتضى مبدأ السفسطائيين : « خلق الحاجات والشهوات » .

إن هذه النهضة لم تكن مجرد حركة ثقافية ، بل كانت مولداً مزدوجاً للرأسمالية والاستعمار ، والتى هى أبعد من أن تكون أوج النزعة الإنسانية ، لقد أتلفت هذه الحضارة حضارات أعلى شأناً منها فى علاقة الإنسان بالطبيعة والمجتمع والأمور الإلهية [١] .

* *

(١) حوار الحضارات - روجيه جارودى - ترجمة د . عادل العوا - منشورات عويدات ، بيروت ، باريس صفحة ٣٨٦ - ٣٨٨

● أزمة الحضارة الغربية :

من خلال العرض السريع للحضارة الغربية تبين لنا ما فيها من جوانب مشرقة وباهرة أسهمت ولا تزال فى تقدم البشرية فى نواح كثيرة علمية واجتماعية واقتصادية وسياسية .

لكنها للأسف منيت بالمادية المتطرفة ، التى حجبتها عن الدين الحق ، وإن كانت هناك بقايا فليس لها الدور المؤثر ، وتبع ذلك غلبة الأهواء الضالة فى جوانب الغرائز فى الجنس والكسب ، واتجاه المجتمع الغربى إلى إباحة الاستباحة ، وهو مصطلح ينطبق على أى مجتمع يباح فيه كل شىء ، ويمكن أن يمتلك أى شىء ، مجتمع انحدرت فيه المعايير الأخلاقية مع مضاعفة الانهماك فى الإشباع الذاتى والمادى والحسى [(١)] .

وإذا كان هذا هو الجانب الداخلى فى الأزمة ، فإن جانب التعامل مع الآخر هى الأزمة الحقيقية التى تعانى

---

(١) انظر « الانفلات » : ٧٤ - ٧٥ ، وما بعدها .

منها البشرية ، ألا وهى الروح الاستعمارية البغيضة التى تبيح للقوة المسيطرة على العالم السياسات الظالمة والجائرة والخطط الاقتصادية والاجتماعية ، التى تكرس السيطرة وتفرض الظلم والقهر على الآخرين وتلبسها ثوب الأممية والعالمية .

ولسنا فى مجال التفصيل ، ويكفى أن نشير إلى السياسة العالمية التى تكرس الاستعمار الاستيطانى الكريه فى فلسطين كما كرسته من قبل فى جنوب إفريقيا وروسيا لولا جهاد شعبيهما . ثم ننظر الآن فى مأساة البوسنة والهرسك ، حتى أن جريدة النيويورك تايمز أعلنت - بمناسبة مرور ألف يوم على حصار سراييفو - موت المبادئ والقيم ، وقد جاء فيه : « فى ذكرى التزامنا بالمبادئ والقيم الخلقية التى ماتت فى البوسنة والهرسك عام ١٩٩٤ لا ترسلوا باقات زهور !! قوموا بتعزية المجلس الأوروبى الأمريكى العامل من أجل السلام فى البلقان [١] .

---

(١) عن جريدة « الشعب » المصرية بتاريخ ١١/٤/١٩٩٤ العدد ٩٣٦ وقد أمضت البيان السيدة مارجريت تاتشر مع عدد من كبار الساسة العالميين .

وإذا اقتربنا من السياسة الاقتصادية وجدنا السياسة الربوية الجائرة التى يمليها صندوق النقد الدولى وكذا مؤسسة التجارة العالمية ، ولسنا فى مجال التفصيل بل غرضنا إكمال الصورة ، وينضم إلى ذلك السياسة الاجتماعية التى تسعى إلى فرض سياسة سكانية على العالم تغير نظام الأسرة وتفتح باب الانحلال والتهتك كما هوحادث فى الغرب ، وما مؤتمر السكان الذى عقد فى القاهرة فى تشرين الأول / أكتوبر ١٩٩٤ عنا ببعيد ، وقد تعاون الأزهر الشريف مع الكنيسة الكاثوليكية فى التصدى لمخططه الآثم ، ومع ذلك فالسياسات الرسمية والاجتماعية لا تزال تغزل الشباك للمجتمعات المقهورة والضعيفة ، بفعل آليات القروض المشروطة والمتدسسة على هذه الشعوب ، ووجود التبعية الذليلة القابلة لهذه السياسات .

* * *

خامساً : رؤية إسلامية لحوار الحضارات

● عالمنا اليوم :

تلكم باختصار شديد جوانب الأزمة الهائلة فى الحضارة الغربية والمؤثرة تأثيراً بعيداً فى مستقبل البشرية . . لكن الجانب الآخر من الصورة هو أن العالم اليوم اختلف عن عالم الأمس من حيث ثورة الاتصال الالكترونية ، لقد دخلت البشرية عصر الإعلام المتعدد الذى يزاوج بين ثلاثة أجهزة : التليفون - الكومبيوتر - التليفزيون ، وهذه التقنيات تم ربط بعضها ببعض . . إن شبكة Internet أكبر شبكة كمبيوتر ، يتحادث فيها مشتركون من شتى الأقطار فى نفس اللحظة بطريقة آنية بتكلفة مكالمة تليفونية محلية .

إن شبكة الألياف الضوئية ستحل محل الكيبلات النحاسية لتنقل المعلومات بكل أشكالها بسرعة الضوء . . إن شعرة واحدة من تلك الألياف الضوئية قادرة على حمل مئات من القنوات التلفزيونية فى نفس اللحظة ، وسيتحول الاستقبال من الأساس التناظرى إلى الأساس الرقمى ،

وهذه الشعرة المصنوعة من الزجاج اللين والتى يقدر سمكها بسمك شعرة الإنسان تستطيع أن تنقل ألف مرة من المعلومات التى تستطيع كل ترددات الراديو نقلها مجتمعة .

ونتيجة لهذا فقد أحدثت صناعة تقنية المعلومات ثورة فى العالم لدرجة أن الناتج العالمى لصناعة المعلومات سنوياً يقرب من ألف مليار دولار . . . وقفزت العمالة فى صناعة المعلومات فى أواخر القرن الماضى من ٨ ٪ فتجاوزت ٤٥٪ فى عام ٨٠ م .

* *

● ما معنى هذا :

سيتزاوج علما المعلومات والاتصالات وسيصبح إمكان عمل بعض الأعمال دون التحرك ، وستزداد أهمية البيت والأسرة والتعليم ، وسيكون هناك تعليم ذاتى . . . وستصبح المعلومات باعتبارها مصدر القوة معيارًا اجتماعياً ووسيلة ارتقاء وتقدم فضلاً عن كونها مورداً اقتصادياً هاماً . . . ومن المؤكد ستحدث تغييرات ثقافية واجتماعية وسياسية وحضارية . . . وهذا التحول فى التقنية سيمكن

من خطاب العقل والفكر بدون حوائل ، وسيتيح للذين يملكون وسائل ويقدرون على معالجة مشكلات الإنسان ، ويحسنون الدخول إلى فطرته .. الحوار والجدل ..

* *

● الإسلام والحوار :

جاء الإسلام خطاباً للبشرية كلها وعودة للفطرة الأصلية، فقام على خطاب النفس كلها عقلاً ووجداناً وحساً ، واعتمد البرهان والتفكير والتدبر فى آيات الله فى الكون والنفس والحياة ، وحرم القسر والإكراه وأوجب الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن وتجاوز بنظرته الجنس واللون وخاطب الناس جميعاً بأنهم من أب واحد وأم واحدة واحترم تعدد شعوبهم وقبائلهم ولغاتهم واعتبرها من آيات الله ، يقول تعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ واخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إنَّ فِى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [1] ،

(١) الروم : ٢٢

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

وحمل القرآن الكريم ألواناً جميلة من خطاب الأنبياء - عليهم السلام - الحانى الرفيق ، والبراهين المتعددة الحاشدة لآيات الله - عز وجل - فى كونه من مثل دعوة نوح - عليه السلام - ودعوة أبى الأنبياء إبراهيم وتأملاته وحجته حينما نظر إلى الكواكب نجومها ثم قمرها وشمسها إلى أن قال : ﴿ .... إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) .

ثم الختام الرائع للأنبياء - عليهم السلام - برسولنا محمد ﷺ وإتمامه مكارم الأخلاق ، وأنه جاء رحمة للعالمين .. وإرساله الرسائل للملوك والأمراء ، والعظماء بالدعوة الحانية للدخول فى دين الله وترك الوثنيات والتحريفات التى أضافتها الأهواء إلى دين الله الحق ، وقد احترم

---

(١) الحجرات : ١٣ (٢) الأنعام : ٧٤ - ٧٩

الإسلام أهل الكتاب وأوصى بهم وطلب البر بهم وجدالهم بالتى هى أحسن .

* *

● **حاجة البشرية إلى الحوار :**

بينا فيما سبق كيف أن ثورة المعلومات وعصى الآليات الالكترونية والآليات الضوئية جعل العالم كله قرية واحدة، وقد أصبح البث الفضائى عن طريق الأقمار الصناعية حقيقة مشاهدة وأمراً نعايشه فى كل وقت وآن مما يسر تبادل المعلومات وسهل لغة الحوار ، والتفاهم هذا من جانب ، ومن جانب آخر فإن المستوى الذى وصلت إليه الإنسانية من التقارب فى جوانب الجامعات والفنون والآداب والثقافات جدير بفتح نوافذ الفهم المشترك . . ناهيك عن النتائج المفزعة والثمرات المرة التى نزلت ببنى الإنسان من الاندفاع المحموم تجاه حضارة الوفرة واستباحة الإباحية وما أوجدته من مشكلات متفاقمة ومتعاظمة فى ارتفاع معدل الجريمة وانتشار المخدرات والخطر المتفاقم لطاعون العصر مرض الإيدز . .

ثم ما وصلت إليه البشرية اليوم من حالة العجز والتردى وعدم القدرة على علاج النزيف الدامى فى كثير من مناطق العالم وخاصة الإسلامى فى فلسطين والبوسنة وكشمير والصومال وجنوب السودان .. مما سبب قلقاً وحيرة وإحباطاً فى نفسية المجتمع الإنسانى كله بعامة والإسلامى على وجه الخصوص .. وأخيراً قضية حقوق الإنسان المنتهكة فى كثير من المجتمعات التى لا تزال تئن من القيود الظالمة والجائرة التى لا تعطى الفرد حقه فى التعبير الكريم ولا القضاء العادل ولا العيش الكريم ، وتعمل فيه بقانون البطش والاستعباد ولا تراعى فيه التكريم الذى خلقه الله من أجله ... ولا الصيحة التى أطلقها الخليفة العادل عمر رضى الله عنه : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » . كل ذلك وغيره يفرض على البشرية منظمات وجامعات وحكومات وعلماء وأدباء ومفكرين أن يتنادوا إلى حوار يضىء شموعاً فى هذا الجو ويعطى أملاً لنفوس وعقول يدمى أفئدتها هذا الواقع الأليم .

* *

● **العقبات التى تواجه الحوار :**

ومما لا شك فيه أن الحوار سيتنوع حسب المشكلات والقضايا التى تواجه الحضارات القائمة والأطروحات والأفكار التى سببها الإرث التاريخى والممارسات التى اعتادتها الحضارة القائمة ، وقد عرض الأستاذان : روچيه جارودى المفكر الفرنسى ومحمد مزالى فى كتاب حوار الحضارات أن العقبة الكؤدد أمام مشروع الأمل فى الحوار هى : عقدة الاستعلاء والغرور التى تحكم الغرب وإرادة الهيمنة والاستغلال ، وأنه ما لم يتحرر الغرب من هذه العقدة ويحترم خصوصية كل ثقافة وأن شرف المساهمة فى إثراء الحضارة البشرية حق وواجب وأنه لا بد من محو آثار الالتباس التاريخى الكبير الذى أفسد علاقات الشرق والغرب منذ قرون ومهد للحروب الصليبية وبرر الاستعمار والإعتداء على حرمات الشعوب وأنه لا بد من محاولة اكتشاف الذات ووجود رؤية حضارية أصيلة تسمح بالتعدد وتؤمن بمقومات الكيان الفردى والجماعى الروحية والفلسفية والأخلاقية . . وتتيح الابتكار والخلق والمعاناة

للظفر بالحلول الجذرية للمشكلات المستعصية التى يطرحها علينا محيطنا الثقافى والاجتماعى . . . وبالجملة لا بد لأبناء الحضارة الغربية من التواضع الفكرى والتخلى عن الاعتقاد بأنهم كل شىء وأنهم مصدر المعرفة والقوة والسعادة وأن من سواهم من البشر مضطرون إلى الأخذ عنهم والاقتداء بهم واستهلاك بضاعتهم . . نسألهم باسم الموضوعية العلمية أن يعيدوا قراءة التاريخ وينفتحوا على الحضارات والثقافات الأخرى .

لقد استقبل النبى ﷺ وفد نصارى نجران فى مسجده الشريف وحاورهم واستمع إليهم . . . وقد حدثت حوارات فى العصر الحديث بدأت من البابا بول السادس فى ٦ آب / أغسطس ١٩٦٤ م ، وقد أنشئت أمانة لشؤون غير المسلمين فى الفاتيكان ودائرة مع الشعوب ذوات العقائد الحية الأيدلوچيات فى مقر مجمع الكنائس العالمية فى جنيف . . والوثائق الأولى للحوار تبين وتوضح أنه كان وسيلة مخفية للتبشير ، وقد أوضح الدكتور هالكروتز

وهو عالم لاهوتى نرويجى فى دراسته المفصلة أن الحوار هو التطوير الثانى لحركة التبشير المسيحى [١]

* *

أخيراً : كيف ينجح الحوار ؟

لقد أوضح أحد الباحثين [٢] الذين عاصروا الحوار الإسلامى المسيحى أنه كى يكون الحوار ناجحاً ومفيداً ومؤدياً لرسالة ، لابد من رعاية الشروط الآتية :

١ - تبادل المعلومات والأفكار والحقائق التى تزيد من معرفة كل فريق بدين الفريق الآخر وتاريخه وحضارته . . . توضيحاً يعين على التلاقى على مواطن الاتفاق أو الاتفاق بطريقة مخلصة وموضوعية .

---

(١) بحث مخطوط عن الحوار الإسلامى المسيحى ص ٣ : دكتور عز الدين إبراهيم .

(٢) هو الأستاذ : د . عز الدين إبراهيم المستشار الثقافى لرئيس دولة الإمارات العربية المتحدة .

٢ - البعد عن التلفيق الدينى بين أحكام الدينين سواء كان ذلك التلفيق صريحاً أو رمزياً .

٣ - العناية بحسن اختيار المتحاور بأن يكون متخصصاً فى الموضوع ليكون قادراً على التعبير الصحيح .

٤ - حسن اختيار مواضيع الحوار والبعد ما أمكن عن حساسيات الفكر اللاهوتى الكلامى القديم الذى حفلت به كتب الملل والنحل .

٥ - اختيار الموضوعات الحية مثل وضع الأقليات سواء كانت مسيحية أو مسلمة فى كلا المجتمعين الإسلامى والمسيحى وتبيين الحقوق والواجبات التى يعطيها كل دين للآخر [(١)] .

* *

● **ومما يعين على إنجاح الحوار وفتح المجالات الكثيرة له :**

* تصحيح الصورة الخاطئة التى ألصقت بالإسلام والمسلمين ، لدى العقلية الغربية ، وهذا ما أكدته

(١) انظر المرجع السابق ص ٤ - ٥

آنا مارشل فى مقدمتها لكتاب « الإسلام كبديل » عندما قالت: المرء عدو ما يجهل ، فإن لوحات فنانى القرن التاسع عشر تسمى المسلمين « المحمديون » وهم إما برابرة غير متحضرين شاهرو السيوف ، أو مترفون غارقون فى مجالس اللهو بين الحسان ، أو فقيه ملتح متزمت ، أو صورة إرهابى وقح لا وازع له . . . ومسيحيو القرون الوسطى ظنوا أن الإسلام زندقة وارتداد عن الدين المسيحى ، وشاعت الأسطورة التى زعمت أن محمداً لم يكن سوى كاردينال كاثوليكى خرج عن البابا ، وأنه شغل بإقامة الدولة وبزوجاته عن الوعظ والدعوة ، وأنه ألف القرآن [1] .

* إن تصحيح الصورة يقتضى تفهماً لتيارات التفكير فى الغرب والتوجه إلى الشرائح التى تبحث عن علاج ما أصاب النفسية الغربية من دمار وتقديم الإسلام الصحيح لهم من خلال البلاغ الواضح المبين والتركيز

---

(١) دكتورة آنا مارشل عميدة الاستشراق الألمانى : مقدمة «الإسلام كبديل » - طبعة أولى ١٩٩٣ م ، طبعة مجلة النور الكويتية ص ٧ ، وما بعدها .

على الجانب العقدى والعبادى والروحى والأخلاقى ، كما ينبغى السعى لتصحيح الأخطاء المبثوثة فى الكتب المدرسية عن الإسلام والمسلمين .

* العمل على إنشاء مراكز بحث ودراسات متخصصة فى جامعاتنا ومعاهدنا الإسلامية تعنى بقضية الحوار ، وتعمل على الاتصال بالمراكز المماثلة لتقدم المعلومات الصحيحة .

* وعلى المسلمين وعلمائهم بوجه أخص أن يبذلوا جهداً فى تبنى قضية الحوار ، فهم الأمة الشاهدة على الناس بالدعوة ، وأن يتخذوا الوسائل المكافئة لذلك بفهم نفسية المخاطبين خاصة فهم الحضارة الغربية والحضارات الأخرى مثل الحضارة الصينية والمذاهب المختلفة ، فهذا ما فعله سلفنا الصالح ، ويقدروا ظروف كل شريحة .

لقد أصبح الإسلام موجوداً فى كل بقاع المعمورة ، وأفلست الأيدلوچيات والمذاهب الأخرى وأصبحت الحاجة ماسة للإسلام ، فهل ينهض المسلمون بواجبهم ويتقدموا للعالم بالخير الذى عندهم ، نسأل الله العون والتوفيق إنه نعم المولى ونعم النصير .

* * *

فهرس الموضوعات